تفسير الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ
قراءة تأويلية

أ.د.حاكم حبيب الكريطي
كلية الآداب / جامعة الكوفة

كلمة بين يدي البحث

شاء الله سبحانه وتعالى ، أن يكون أهل البيت ــ عليهم السلام ــ خزّاناً لعلمه المكنون في كتابه الكريم ، وعلى من أراد أن يعرف المعنى القرآني ، أن يعود إليهم ، فهم الراسخون في العلم حقاً الذين خصَّهم الله عز وجل بعلم تأويل الكتاب .

وقد جاءت إشاراتهم ــ عليهم السلام ــ الى معاني القرآن ــ في الغالب ــ إجابات عن أسئلة يبسطها أمامهم أصحابهم ومواليهم ، فيجيبون عنها ، بما تُقرب المعنى الى ذهن السائل ، ويضع أمامه ــ في الوقت نفسه ــ اطاراً عاماً ، يمكن أنْ يسير بهديه وهو ينظر في القرآن الكريم ، لأنّ هذا الاطار المعرفي لم يسبق بجهل ، وإنما هو نابع من علمٍ لدني خُصّ به أهل البيت ــ عليهم السلام ــ .

ويأتي تفسير الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ الذي يتناوله هذا البحث ، محطة معرفية من محطات معارف أهل البيت ــ عليهم السلام ــ وعلومهم التي تخص القرآن الكريم . وقد جاء هذا التفسير ــ أيضاً ــ اجابات عن دلالات آيات سُئل الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ عنها ، ففسّرها على وفق ما يقتضيه السؤال ، والسائل والمقام في آنٍ معاً ، من دون توسعةٍ ، قد لا يحتملها السائل أو غيره . فحينما سأله أحد أصحابه عن تفسير الحروف المقطعة ، أنبأه الإمام ــ عليه السلام ــ بصعوبة ذلك عليه أو عدم قدرته على احتماله ، واستناداً الى هذا ، فإنّ ما يرد في هذا التفسير ، يُعد بعضاً من توجيهات الإمام ــ عليه السلام ــ لمعنى الآية ، لأن القرآن ((حمّال ذو وجوه)) ، ولأن الإمام ــ عليه السلام ــ لم يُعطِ من المعنى إلّا بالقدر الذي يحتاج إليه السائل ، وبما يتلاءم مع الإدراك المعرفي للمسلمين عصرئذٍ .

وسنأخذ في هذا البحث الآيات التي فسّرها الإمام ــ عليه السلام ــ على وفق ترتيبها في المصحف ، بصرف النظر عن الزمان التي فُسّرت فيه . بعد أن بيّنا القيود المعرفية التي استنبطناها من تفسير الإمام ــ عليه السلام ــ .

النهي عن تفسير القرآن بالرأي :

وردت روايات كثيرة في مصادر المسلمين ، تقول بالنهي عن تفسير القرآن بالرأي ، فعن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : ((من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار))[1] ، وعن الإمام الصادق ــ عليه السلام ــ ((من فسّر القرآن

برأيه ، إن أصاب لم يؤجر ، وإن أخطأ فهو أبعد عن السماء))[٢] .

وقد سار الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ على نهج أخيه وأبيه وجده ــ عليهم السلام ــ في النهي عن تفسير القرآن بالرأي ، إذ ورد إنّ أهل البصرة كتبوا إليه ، يسألونه عن معنى الصمد ، فكتب إليهم : ((بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فلا تخوضوا في القرآن ولا تجادلوا فيه ، ولا تتكلموا فيه بغير علم ، فقد سمعتُ جدي رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول من قال في القرآن بغير علم ، فليتبوأ مقعده من النار))[٣] . فكيف نتأول ما يريده الإمام ــ عليه السلام ــ في توجيهه هذا لأهل البصرة ولغيرهم من المسلمين . وهنا نقول الآتي :

إن اللافت للنظر في قول الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ ، انّه نهى المسلمين عن الخوض في القرآن الكريم ، فما دلالة الخوض في الاستعمال الاجتماعي ؟ جاء في لسان العرب تحت الجذر (خوض) المعاني الآتية مما يناسب المقام[٤] :

١- أصل الخوض المشي في الماء وتحريكه ، ثم استعمل في التلبُّس بالأمر والتصرف فيه .

٢- الخوض : اللَّبس في الأمر .

٣- الخوض من الكلام ما فيه الكذب والباطل .

يتضح من هذه الدلالات ، إنّ اللبس والتخليط والكذب والباطل ، قد تكون مظهراً من مظاهر تفسير القرآن بالرأي ، استناداً الى الدلالات المشار إليها ، فضلاً عمّا يؤديه معنى المجادلة من طلب المغالبة بين متحاورين أو خصمين ، وهذا كلّه لا ينسجم مع قدسية القرآن الكريم . وسيقود حتماً الى القول بما لا يرضاه الله تعالى ، ولا يوجد له أصل في القرآن ، لأن من يفعل ذلك . لا يملك شيئاً من علم يردعه عن هذا الطريق ، وعليه أن يتبوأ مقعده من النار استناداً الى الحديث النبوي الذي رواه الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ لأنه قال في القرآن الكريم برأيه .

فالقول في القرآن من دون علم يُخضع صاحبه للهوى ، فيتأوّل النّص الربّاني على هواه ، ويبتعد بذلك عمّا يريده الله تعالى في المنهج الإسلامي الحقيقي الذي بلّغه النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ، ومن هنا اضطر الإمام علي ــ عليه السلام ــ الى قتال الذين تأوّلوا القرآن بدافع الهوى . وقد سمعوا إن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال ((إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله))[٥]، وهؤلاء الذين قاتلهم الإمام ــ عليه السلام ــ أخضعوا القرآن لآرائهم ، وجعلوا مراد الله تعالى في كتابه ، متسقاً مع ما يريدون .

وثمة أمر آخر يرتبط بما ذكرناه ، وهو انّ على من يتصدى للنظر في القرآن ، أن يكون محيطاً بعلومه التي تربو على الثمانين عند السيوطي ، فإذا تمّ له ذلك ، حقّ له النظر في تفسير القرآن ، من دون أن يقطع بأنّ ما يقوله هو مراد الله سبحانه وتعالى[٦] .

مراتب إدراك النص القرآني :

وقد قفّى الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ قوله السابق بقول آخر ، وضع فيه رتب النص القرآني ، من جهة من يريد أن يتحصل على معناه ، من

دون أن يكون من أولئك الذين يريدون القول برأيهم فيه فقال ــ عليه السلام ــ ، ((كتاب الله عز وجل على أربعة أشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق ، فالعبارة للعوام ، والإشارة للخواص ، واللطائف للأولياء ، والحقائق للأنبياء))[٧] .

إنّ قول الإمام ــ عليه السلام ــ هذا يُبعد من يريد أنْ يقول في القرآن برأيه عن دائرة (الخوض والمجادلة) – مرت في القول السابق – ، لأنّه أدرى بالمرتبة التي يمكن أن يضع نفسه فيها ، من هذه المراتب الأربعة ، وفي الأحوال كلّها ، فإنّ لجميع من يقرأ القرآن نصيباً فيه ، والكل يأخذ منه على قدر ما يملك من معرفة تُعينه على التقاط المعنى القرآني من دون جور ، قد يخضعه لرأيه ، فيقع في المحذور.

وهذا منهج صحيح لا ضير فيه ، إذ يتيح لهم ما يحتاجون إليه من شؤون دينهم من دون تفصيل وتعمّق ، وبإمكان هؤلاء الارتقاء في الإدراك المعرفي للقرآن بالتدرّج ، وفي الأحوال كلّها يَبقَون في دائرة الحضور الفكري ، من دون اعتقاد ، إذ قد لا يكون ما يرونه دقيقاً . ومن هنا تتحقق الاستفادة من القرآن الكريم لطبقة العوام من الآيات ذات المعنى الظاهر ، مثل قوله تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود)) ، فظاهر معنى الآية يأمر بالوفاء بعقود المعاملات ، والمواثيق ، والالتزام بذلك ، وهذا يكفي هذه الطبقة ، أما إذا أراد أحدٌ أن ينحو بالآية منحى آخر لتشمل المواثيق الدينية التي أخذها الله من عباده [٨] ، فذلك شأن مرتبة أخرى ، تقوى على ذلك .

أما الإشارة التي جعلها الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ للخواص ، فهي مرتبة من يكون ذا نظر ثاقب ودقة معرفية ، ناتجة عن أناة وتدبر في المعنى القرآني ، وهذا كلّه يُتيح له التقاط بعض المعاني والدلالات التي ليس بمقدور العوام التقاطها . ولعل عودة الى معاني الجذر(خوص) تهيء لنا الوقوف المثمر على المعنى الذي قد يريده الإمام ــ عليه السلام ــ من ذكره للخواص .

جاء في لسان العرب ، تحت الجذر (خوص) المعاني الآتية التي تناسب المقام[٩] :

١- خاوص الرجل وتخاوص : غضَّ من بصره شيئاً ، وهو في كل ذلك يحدّق النظر كأنه يُقوّم سهماً .

٢- التخاوص : أنْ يغمض بصره عن نظره الى عين الشمس متخاوصاً .

٣- الظهيره الخوصاء : أشدّ الظهائر حرّاً ، لا تستطيع أن تجد طرفك إلّا متخاوصاً .

٤- الخوصاء من الرياح : الحارة يكسر الإنسان عينه من حرّها ويتخاوص لها .

إنّ مقاربة هذه المعاني تُحيلنا الى معنى عام يتمثل في (الخاصة) وهو : إن هذه الطبقة تحسن التحديق بنظرها ، إذ تغضّه من أجل ذلك كأنها تقوّمُ سهماً ، لفرط أناتها . وإذا طبقّنا هذا على القرآن . فيكون الرجل من هذه الطبقة ، هو الذي يتأنى في نظره الى معاني القرآن ويتدبرها جيداً ، لأنّه يواجه نصّاً ربانياً ، لا يمكن أن يجد

نظره مفتوحاً فيه بتمامه . بل يبقى متخاوصاً . لأنه يبحث عن منفذ ، ولكن يكسره النّص الذي يُحدّق فيه . وهذه المزاوجة المعرفية بين المعنى اللغوي والاصطلاحي توافقت تماماً ـــ كما ظهر ـــ في بيان المهمة التي تنهض بها هذهِ الطبقة وهي تنظر الى إشارات القرآن الكريم . وهذا كلّه لا يتأتّى إلّا لمن يمتلك القدرة على ذلك استناداً الى المعارف والعلوم التي بحوزته قبل أنْ يتصدى للتدبر المأمور به ، ويخاوص بصره في المعنى الذي يريد أنْ يقف عليه بعد أن هداه ظاهر النّص الى ذلك .

وهذا ما سار عليه أغلب المفسرين الذين تكلفوا بمهمة الكشف عن بعض معاني القرآن ، بعد أن تقرّبوا إليها بمعرفتهم بعلومه ، وعلوم اللغة والروايات المساندة لذلك كلّه ، ووفّقوا بين هذا وذاك توفيقاً معرفياً متأنياً ، فأنار الله – عز وجل – لهم سبل التفسير والتأويل وقدّموا لنا ما توصلوا إليه ببالغ جهدهم .

أما لطائف القرآن الواردة في قول الإمام ـ عليه السلام ـ السابق ، فَتيسّر لنا العودة الى المعجم ـ أيضاً ـ بيان معانيها . جاء في لسان العرب تحت الجذر (لطف) المعاني الآتية تناسب المقام ـــ أيضاً ـــ [10] :-

١- لطف بالضم يلطُفُ : صَغُر ودقّ .

٢- لطف الله لك : أي أوصل إليك ما تُحب برفق .

٣- أم لطيفة بولدها : تلطف ألطافاً .

٤- جاءتنا لطفة من فلان ، أي هدية .

٥- اللطيف من الكلام : ما غمض معناه وخفي .

إنّ المقاربة المعرفية لمعاني الجذر (لطف) هذه ، تمكّننا من القول الآتي : إنّ لطائف القرآن تعني : المعاني الدقيقة التي غمضت وخفّيت ، ويصل إليها المتدبر بلطف من الله سبحانه وتعالى ، الذي يرأفُ بعباده ويلطف بهم ، كما تلطف الأم بولدها وتعنى به . وهذا التوجيه يُغرينا بالقول : إن معرفة لطائف القرآن مرتبة يخصُّ بها الله تعالى بعض عباده . وهم الأولياء ، ((وهم أهل الوله والمحبة لله ، وخصّ بهم أنّهم لا يلتفتون الى شيء إلّا سبحانه وتعالى))[11] ، فهم يسيرون في الحياة بنور الهداية الربانية التي جعلها الله تعالى في قلوبهم ، فتنوّرت أبصارهم وبصائرهم ، وصاروا يتلذذون بلطائف القرآن بذلك النور الذي منحه الله تعالى لهم ، فتميّزوا من غيرهم .

وما قول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لسلمان الفارسي ((أنت منّا أهل البيت))[12] إلّا لبلوغه هذه المرتبة من الصلة بالله سبحانه وتعالى ، فتكون معرفته بالقرآن على النحو الذي أشار إليه الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ ، وثمة رواية أخرى تؤكد هذا المضمون تماماً ، تقول الرواية : إن الإمام علياً ـ عليه السلام ـ ذكر جابر بن عبد الله الأنصاري ووصفه بالعلم ((فقال له رجل : جعلت فداك تصف جابر بالعلم وأنت أنت ، فقال ـ عليه السلام ـ انّه كان يعرف تفسير قوله تعالى (إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد))[13] ،

وهذا القول من الإمام علي ـــــ عليه السلام ـــــ ، يُنبئ عن اشتمال الآية على لطائف ، لم يقف عليها الصحابة الآخرون ، على الرغم من انّهم يعرفون سبب نزولها ومكانه ، وما يؤديه معناها الظاهر . ومن هنا عُرف عن بعضهم انّهم من خواص أمير المؤمنين ، وهذه مرتبة تتصل بصلة الصحابي بالله سبحانه وتعالى ، ومعرفة الإمام ـ عليه السلام ـ بذلك ، وأول وجه من وجوه الصلة ، هو معرفة ما في القرآن الكريم من لطائف ، تبدأ بالتجلّي لصاحبها بعد أن يبلغ في الإيمان مبلغاً ، تحيطه معه رعاية الله ولطفه .

ويبقى من قول الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ ، حقائق القرآن التي جعلها من شأن الأنبياء ، والمعني بالأنبياء هنا النبي محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، لأنه العارف بالقرآن الكريم ، ويتبعه الإمام علي ـ عليه السلام ـ ، وأهل البيت ـ عليهم السلام ـ ، لأنهم عِدل القرآن ، ويعرفون ما وضع الله تعالى فيه من العلوم والمعارف ، وثمة روايات وأخبار كثيرة ، تؤكد انّ حقائق القرآن مودعةً عند أهل البيت ـ عليهم السلام ـ ، وسنكتفي ببعضها موجزين

تفسير قوله تعالى ((ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس)) :

تُبيّن هذه الآية المباركة حكماً من احكام شعيرة الحج ، وهو الأمر بالافاضة من عرفات الى المزدلفة (المشعر الحرام) ، والافاضة في اللغة تعني الاندفاع بكثرة ، ((وأفاض الناسُ من عرفات اندفعوا بكثرة الى منى بالتلبية وكل دفعة إفاضة))[١٤] ، ومن ثم صار الوقوف بعرفات واجباً ، لأنّ الإفاضة لا تكون إلّا بعد وقوف .

ولا بأس من القول هنا ، إنّ الخطاب في الآية المباركة موجهٌ للمسلمين عامة يأمرهم بالإفاضة من عرفات ، لأن قريش وحلفاءها من الحُمس كانوا لا يقفون بعرفات ، بل بالمزدلفة وكانوا يقولون : نحن أهل حرم الله ، لا نفارق الحرم ، فأمرهم الله سبحانه وتعالى بالإفاضة من حيث أفاض الناس .

وهنا يتجلى سؤال لازم ، وهو مَنْ مِنْ الناس الذين يُؤمر المسلمون بالإفاضة بافاضتهم من عرفات ؟ والإفاضة هنا عمل عبادي ، له وقته وجهته وطريقته ، فلا يمكن أنْ يكون هذا الأمر الربّاني عائماً هكذا ، ليدعي من يشاء انّه (الناس) الذين على الآخرين الإفاضة معهم .

إنّ الإجابة عن هذا السؤال يبسطها الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ بأمر من أبيه ـ عليه السلام ـ ، فثمة رواية تقول إنّ رجلاً ((جاء الى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فقال له : أخبرني إن كنت عالماً عن الناس ، وعن أشباه الناس وعن النسناس ، فقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : يا حسين أجب الرجل))[١٥] .

إنّ الملاحظة التي تتراءى لنا هنا ، وتحتّم علينا الوقوف عندها في هذا الجزء من الرواية ، هي احساسنا بشيء من العنت والمشقة في سؤال الرجل ، ورغبته كما يظن هو ـــ في اقحام الإمام ـ عليه السلام ـ – وأنّى له ذلك – ، من خلال قوله ((إن كنت عالماً بالناس)) ، ومعلوم انّ ما من

أحد يجرؤ على قول مثل هذا الكلام لعلي ـ عليه السلام ـ إلّا أن يكون جاهلاً .

وعلى الرغم من هذا كلّه ، فقد ردّ الإمام ـ عليه السلام ـ عنت الرجل ورغبته تلك ، بأنه لم يجب هو بنفسه ، وإنما أمر الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ بالإجابة ، وعلى الرغم من عدم معرفتنا بتاريخ الحادثة ، فإننا نرجّح إنّ الحسين ـ عليه السلام ـ كان صبياً أو شاباً ، وجوابه عن سؤال الرجل ، يأخذ من الرجل عنته ، ويَفتّ عضده ، ويفحمه ، لأنّ الإجابة جاءت من الحسين ـ عليه السلام ـ الذي أخذ علمه من أبيه ـ عليه السلام ـ . هذا فضلاً عن إنّ إجابة الحسين ـ عليه السلام ـ تبرّز للسائل حقيقة ، إنّ أهل البيت ـ عليهم السلام ـ يأخذون علمهم اللاحق عن السابق ، وهو علم لدني يحيط بالحقائق الربانية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في القرآن المجيد ، فهو ((تبيان لكل شيء))[١٦] .

ويجيب الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ عن السؤال مخاطباً السائل ((أما قولك أخبرني عن الناس ، فنحنُ الناس ، ولذلك قال الله تعالى ذكره في كتابه ((ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، فرسول الله الذي أفاض بالناس))[١٧] .

إنّ توجيه الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ لدلالة لفظة الناس على النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تتلاءم مع مراد الآية الكريمة ، وتتسق مع سياقها ، لأنّ الإفاضة من عرفات الى المزدلفة ، لها زمن معلوم ، بعد غروب الشمس يوم التاسع من ذي الحجة ، ويسبقها عمل معلوم أيضاً ، هو الوقوف في عرفات من الزوال الى غروب الشمس من اليوم نفسه ، فكيف يُوكل هذا العمل العبادي الى عامة الناس ، إذا كان الأمر على النحو الذي ذهب إليه بعض المفسرين كما سيرد في البحث ؟ اذاً يبقى أمر هذه الشعائر موكلاً بالنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، وهو الذي أمر المسلمين أن يأخذوا منه مناسكهم في حجة الوداع باتباع ما يعمله في المشاعر المقدسة ، حينما قال لهم ((خذوا مني مناسككم لعلي لا أراكم بعد عامي هذا))[١٨] ، وهو ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذي أفاضَ من عرفات بسكينة وخشوع ، ليعلّم المسلمين قدسية الأماكن التي يتحركون على صعدها الطاهرة في الموسم ، وما من شك إن الإفاضة التي يريدها القرآن ، هي إفاضة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ .

وقد يقال نحوياً هنا ، إنّ لفظ الناس (جمع) ، وخُوطب به النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، على وفق تفسير الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ ، فكيف نسوّغ هذا الاستعمال النحوي؟ وهنا نجيب ، إنّ العرب تخاطب الرجل الفطيم ((الذي له اتباع مخاطبة الجمع ، وكذلك من له صفات كثيرة))[١٩] . واستناداً الى هذا تكون دلالة لفظة (الناس) على النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في هذه الآية وعلى وفق توجيه الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ منسجمة مع اللسان العربي تماماً ، بعد أنْ انسجمت مع ما يريده القرآن الكريم من حيث توجيه المسلمين الى الاقتداء بما يفعله النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في إقامة شعائر الله سبحانه وتعالى .

بيد أن اللافت للنظر إنّ بعض المفسرين ذهبوا مذاهب شتى في بيان دلالة (الناس) في الآية . فمنهم من ذهب الى ان (الناس) في هذه الآية ((هم العرب كلها غير الحمس))[٢٠] ، وهذا التوجيه مردود بما ذكرناه قبل قليل ، ومنهم من ذهب الى القول ان (الناس) ، هو آدم ـ عليه السلام ـ من قوله تعالى ((ولقد عهدنا الى آدم من قبلُ فنسي))[٢١] .

و هذا التوجيه بعيدٌ من المفسّر المميز العالم الزمخشري ، إذ لم تكن صفة (الناسي) ملازمة لآدم ـ عليه السلام ـ ، واستعمالها في السياق لا يحقق مقصداً يمكن أنْ تتأوله إلّا التذكير بأنّه ـ عليه السلام ـ ترك الوصية ، ولم يكن له قصداً جازماً على عدم الأكل من الشجرة . والسياق الذي وردت فيه الآية ـــ كما مرّ ـــ سياق تشريع الحج الذي شرعه النبي ابراهيم ـ عليه السلام ـ ثم أمضاه الله سبحانه وتعالى في هذه الأمة .

وثمة إشارة أخرى نرى من المناسب ذكرها ، وهي إن أبا حيان في البحر المحيط ، ذهب الى تفسير الناس بقوله ((... وقيل إبراهيم وحده ، وقيل آدم وحده))[٢٢] ، وعلى الرغم من إنّ آدم وابراهيم ـ عليه السلام ـ من مصاديق دلالة (الناس) في الآية ، فالأولى توجيهها الى مصداقها الرئيس النبي (محمد) ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لأنّهُ المكلّف من الله سبحانه وتعالى ببيان شعيرة الحج بتفاصيلها كلّها ، بعد أن دخلتها في العصر الجاهلي طقوس لا صلة لها بها أخرجتها عن اطارها الشرعي الذي أراده الله تعالى .

واستناداً الى ما تقدم ، تبيّن لنا دقة التفسير الذي بسطه الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ في شرحه للمراد بـ (الناس) مستدلاً بدلالة الآية المباركة ، ولو اكتفى ـ عليه السلام ـ ببيان الدلالة من دون الاستشهاد بالآية لكان كافياً ، لأنه يرد عن أبيه وجدّه عنت السائل بما يبصّره بالحق ، ويدفع ما في نفسه من شكٍ في أهل البيت ـ عليهم السلام ـ كما ظهر في مخاطبته للإمام علي ـ عليه السلام ـ (إن كنت عالماً بالناس) .

ويُتم الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ الإجابة عن بقية ما أراده الرجل في سؤاله ، فقال ((وأما قولك : أشباه الناس ، فهم شيعتنا ومواليا ، وهم منا ، ولذلك قال ابراهيم (فمن تبعني فإنّه مني)))[٢٣] .

فبعد أن اطمأن الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ الى انّ دلالة (الناس) على النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ صارت راكزة في ذهن السائل خاصة والمتلقي عامة ، فسّر أشباه الناس (أي أشباههم) بشيعتهم ومواليهم . لأن ذكر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يعني ذكراً لأهل بيته ـ عليهم السلام ـ ، فتوسعت دلالة (الناس) في هذا الجزء من الجواب لتشمل (أهل البيت ـ عليهم السلام ـ) بالعبارة الصريحة ، على الرغم من معرفة المسلمين عصرئذ بدلالة مصطلح (أهل البيت) من قبلُ .

فالأشباه جمع شبيه ، واشبه الشيء الشيء : ماثله[٢٤] ، وعلى وفق ها المعنى ، يكون شيعة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ ، أشباهاً لأهل

البيت ــ عليه السلام ــ ، والشيعة تعني ((كل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض[٢٥]))، وبصياغة أخرى لهذه البيان الذي بسطه الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ ، نقول : إن أشباه أهل البيت وهم شيعتهم ، هم الذين يتبع بعضهم بعضاً ، ويتبعون أهل البيت ــ عليهم السلام ــ وهم أنصارهم الذي ينصرونهم في كل حين .

إن توجيه الحسين ــ عليه السلام ــ لهذهِ الدلالة يعني أنه وضع أسّاً لدلالة مصطلح (الشيعة) بهذا المفهوم وهذه الدلالة العقائدية ، إذ صار دالّا على من يتبع أهل البيت ــ عليهم السلام ــ . جاء في لسان العرب ((والشيعة قوم يهوون هوى عترة النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ويوالونهم ... وقد غلب هذا الاسم على من يتولى علياً وأهل بيته رضوان الله عليهم أجمعين))[٢٦] .

أما قوله ــ عليه السلام ــ ((وهم موالينا)) ، فهذه اضافة معرفية أخرى لتوسيع دلالة مصطلح (الشيعة) ليؤدي معناه الحقيقي الذي يتمسك به أهله ، والمولى والابن العصبات كلّهم ، والمولى : الناصر ، والمولى : الوالي الذي يلي عليك أمرك))[٢٧] ، وهذه المعاني كلّها تنطبق على شيعة أهل البيت ــ عليهم السلام ــ ، وتجعلهم أشباهاً لهم حقاً .

والملاحظ إنّ بعض المعاني المشار إليها تفصح عن قرب نَسَبي ، فابن العم والعم والأخ والابن ، هم الأهل والعصبة حقاً ، واستناداً الى هذه الدلالات صار أشباه أهل البيت ــ عليهم السلام ــ (منهم) على وفق هذه المعاني وعلى وفق قول الإمام ــ عليه السلام ــ ((وهم منّا)) . ولكي يركز الإمام ــ عليه السلام ــ هذا المعنى في النفوس ، جاء بقول الله تعالى على لسان ابراهيم ــ عليه السلام ــ ((فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي))[٢٨] شاهداً لهذه المعاني التي اجترحها لدلالة المصطلح ، وربط دلالته بأشباه (الناس) ، فكيف نتأول ذكر الآية المباركة هنا ؟ .

إن إبراهيم ــ عليه السلام ــ دعا ربه بهذه الدعوات الواردة في سورة (ابراهيم) ، فألحقَ كل من تبعه بنفسه ، وصار منه في أمر دينه[٢٩] ، وهذا يتوافق تماماً مع أتباع أهل البيت ــ عليهم السلام ــ ، إذْ أحبّوا أئمتهم وتبعوهم وصاروا منهم ، فقد ورد عن الإمام أبي عبد الله الصادق ــ عليه السلام ــ أنه قال لأحد أصحابه ((من أحبّنا فهو منّا أهل البيت ... منا والله ، أما سمعتَ قول الله وهو قول إبراهيم فمن تبعني فإنّه مني))[٣٠] . ومن يحب أهل البيت يكون تابعاً لهم ، ومن تبعهم صار منهم ، وهنا يلتقي قول المعصومَين ــ عليهما السلام ــ في بيان منزلة من يتمسك بهداهم ويُحبهم.

ويستحضر الإمام الصادق ــ عليه السلام ــ قول جدّه الحسين ــ عليه السلام ــ في رواية أخرى أوردها العياشي في تفسيره ، يؤطرها هذا المعنى ، معنى من تبع أهل البيت ــ عليهم السلام ــ ، وتمسك بمنهجهم ، فهو منهم ، وعلى وفق تفسير الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ من كان شبيهاً لهم . تقول الرواية ((عن محمد الحلبي عن أبي عبد الله ــ عليه السلام ــ قال : من اتقى الله منكم وأصلح فهو منا أهل البيت ، قال : منكم أهل البيت ؟ قال : منّا أهل البيت ، قال بها إبراهيم (فمن تبعني والله من آل

محمد ، أي والله من أنفسهم ، أما تسمع الله يقول (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وقول ابراهيم : فمن تبعني فإنه مني))[٣١] .

ويبقى من جواب الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ لذلك الرجل السائل قوله ((وأما قولك النسناس ، فهم السواد الأعظم وأشار بيده الى جماعة من الناس ثم قال : إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا))[٣٢] ، فالنسناس على وفق وصف الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ هم هذا السواد الكثير من المسلمين الذين يتشبّهون بالناس في ادعائهم السير على هدي النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأهل بيته ولكنهم ليسوا منهم ، لأنهم ليسوا أشباهاً لهم لا في قول ولا في عمل . ومن هنا جاءت لفظة (النسناس) تحملُ في ذاتها شبهاً بـ (الناس) ولكنها ليست هي .

ويوجّه ابن منظور في لسان العرب (النسناس) ، هذا التوجيه فيقول فهم ((يتشبّهون بالناس وليسوا من الناس)) ، فهم اذاً على وفق ـــ ابن منظور ـــ قوم من بني آدم ، يريدون أن يتشبهوا أو يتشبهون فعلاً بالناس ، وليسوا منه ، وهذا التوجيه يتطابق مع تماماً مع قول الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ إذ عدّ الناس صنفاً من المسلمين ، وهم اتباع أهل البيت ـ عليهم السلام ـ ، ثم أراد آخرون أن يكونوا أشباها لهم فلم يقدروا فقيل لهم (النسناس) .

ويقرن الإمام ـــ عليه السلام ـــ فئة (النسناس) هؤلاء بالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً ، استناداً الى الآية الكريمة التي وضعت أهل السعير بأنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون ، فالنسناس اذاً أضلُ سبيلاً من الأنعام . لأنّ من الأنعام من ((لا تقحم على ما يضرّها ، وهؤلاء يرجحون ، ما يضرهم على ما ينفعهم ، وأيضاص الأنعام أنْ ضلّت عن سبيل الحق فإنّها لم تجهز في خلقتها بما يهديها إليه ، وهؤلاء مجهزون وقد ضلوا))[٣٣] ، وما ضلالهم إلّا لأنهم لم يتبعوا أهل البيت ـ عليهم السلام ـ ، فكأنهم صاروا آخر من الخلق يشبه الناس في المظهر ولا يشابههم في الحقيقة .

إنّ الدلالات التي بسطها الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ في إجابته للسائل ، عدلت لفظة (الناس) الى مجال معرفي آخر ، واستند في ذلك كلّه الى آيات القرآن الكريم التي سوّغت هذا الاستعمال للدلالة على المعنى الدقيق الذي تريده ، فكان استشهاد الإمام بها أفقاً معرفياً يسعى الى تمييز أتباع الحق من غيرهم ، فضلاً عن أنّ واجب الإنسان ان لا ينخدع بظاهر ما يراه ، فقد يختبأ تحته ما ليس منه ـــ كما يختبئ (النسناس) خلف (أشباه الناس) المشار إليهم في بيانه ـ عليه السلام ـ .

تفسير قوله تعالى ((وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)) :

فسّر الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ قوله تعالى ((وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)) البروج٣ ، بقوله ((الشاهد جدي رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسم ـ ، والمشهود يوم القيامة ، ثم تلا هذهِ الآية إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وتلا فذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود))[٣٤] .

إنّ الاستقراء الأوّلي لتفسير الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ لهذهِ الآية المباركة ، يكشف لنا عن منهج تفسيري عُرف فيما بعد بـ (تفسير القرآن بالقرآن) ، إذ لم يكن معروفاً عند غير أهل البيت ـ عليهم السلام ـ ، إذ كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أول من دلّ المسلمين على تفسير القرآن بالقرآن ، ثم جاء من بعده الإمام علي ـ عليه السلام ـ فوجّه أصحابه إلى هذا المنهج[٣٥] ، اذا أرادوا أن يستكشفوا بأنفسهم بعض ما في القرآن من غرائب بدلالتها الاعجازية ، ولا يتمُّ لهم ذلك إلّا بالتدبر المأمور به في القرآن .

ويمكننا أن نستدل على جزئيات هذا المنهج من خلال ما أورده الإمام ـ عليه السلام ـ من أمثلة . فمن التَّمعَّن في الآيات الثلاث موطن الشاهد نمسك بالجزئيات الآتية :

أولاً : وضع الآيات القرآنية التي تدور في حقل دلالي واحد في نسق واحد والموازنة بينها . واستقراؤها بما يكشف الرابط بينها ، للوقوف على المعاني التي يمكن أن تتجلّى للمتدبر .

ثانياً : مراعاة ترتيب نزول الآيات المباركة ، المنتظمة في الحقل الدلالي ، لأنّ الآية المتأخرة هي التي تُفسر ما سبق نزوله ان كان وجه التأويل فيها يحتاج الى توجيه .

فالإمام الحسين ـ عليه السلام ـ فسّر آية سورة (البروج) وهي مكية ، بما ورد في سورة(هود) وهي مكية ـــ أيضاً ـــ . ومتأخرة في نزولها عن سورة (البروج) ، وبما ورد في سورة الأحزاب، وهي مدنية [٣٦] .

وأحسبُ هنا انّ ما استظهرناه من منهج الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ في التفسير ، يُعدُّ جديداً في بابه من جهة ، وفي استظهاره من جهة أخرى ، إذ لم أعثر في حدود ما اطلعتُ عليه على من وفّق بين ترتيب النزول وترتيب المصحف ، وهو يفسّر القرآن ، من المفسرين .فما أورده أغلب المفسرين عن الصحابة ، يُفسّر الآية بآيةٍ مشابهة بصرف النظر عن ترتيب نزولها.

ونعود الآن الى تفسير الإمام ـ عليه السلام ـ للآية ، فنقول ، إنّ الآية جاءت في سياق القسم الذي أقسم به الله تعالى في مفتتح السورة المباركة ((والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود)) ، فالشاهد والمشهود اذاً من الآيات الكبرى التي يُقسم بها الله تعالى ، فنستبعد اذاً أن يكون الشاهد ((العالم الذي يُبيّن ما علمه))[٣٧] في شهادته ، ومن هذا ـــ أيضاً ـــ لا يمكن أن يكون المشهود أمراً وقع ويشهد عليه شاهدٌ عَلِمَهُ ، وإنما الشاهد يعني هنا الحاضر الذي شهد أمراً أي حضره ، لأنّ السياق يقتضي هذا التوجيه ، فالشاهد هنا هو الذي شهد ((أعمال أولئك الكفار وما يفعلونه بالمؤمنين لإيمانهم بالله))[٣٨] ، واستناداً الى ذلك يكون (المشهود) أمراً سيشهده الجميع وينظرون إليه ويعاينونه معاينة . ومادام الشاهد المذكور في الآية يكون حاضراً ويرى الأعمال بعينه ، فإنّه لا يكون إلّا النبي محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقد روي ((إن أعمال العباد تعرض على رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وعلى الأئمة ـ عليهم السلام ـ كل يوم أبرارها وفجارها

فاحذروا وذلك قول الله عز وجل (وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)[٣٩] .

ونعود الآن الى توجيه الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ إذ جعل (شاهداً) في قوله تعالى ((يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً)) دليلاً على شهادة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يوم القيامة على أعمال العباد . والملاحظ إنّ الإمام ـ عليه السلام ـ اختار هذه الآية لتفسير (وشاهد ومشهود) دون غيرها على الرغم من كثرة آيات الشهادة النبوية ، لأنها واضحة في دلالتها ، لا تقبل أي وجهٍ لتأويلها على نحو آخر ، فالخطاب موجه للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فصار التفسير واضحاً لا يدخل في باب التأويل الذي قد يحمل على أكثر من وجه .

وثمة أمر يتحرك في النفس ، يمكن أن نبسطه هنا ، وهو ان الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ اختار هذه الآية ، لأن فيها تعريفاً وبياناً من الله سبحانه وتعالى بمهمة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، وهو بيان إكبار وتعظيم وإجلال ((لأن طاعته طاعة الله وبيعته بيعة الله))[٤٠] ، فأي شرف وإجلال بعد هذا الشرف الرباني لسيد ولد آدم ـ عليه السلام ـ .

واستناداً الى ما تقدم يكون القسم بالنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ (الشاهد) مناسباً لما سبقه من قسم بالسماء ذات البروج واليوم الموعود .

تفسير سورة التوحيد :

كتب أهل البصرة الى الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ ، يسألونه عن معنى (الصمد) ، فأجابهم بقوله مفسّراً ((... وإنّ الله سبحانه وتعالى قد فسّر (الصمد) ، فقال الله أحد ، الله الصمد ، ثم فسّره فقال : لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد))[٤١] .

إن ما يوجب التأمل في قول الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ هذا في تفسير معنى (الصمد) ، استعانته بسياق السورة المباركة لبيان المعنى المراد ، وهذه الالتفاتة المعرفية تُعدُّ تأسيساً لمنهج معرفي استقر في القرون اللاحقة ، ولم يكن معروفاً عصرئذٍ ، فالذي كان شائعاً في تفسير القرآن . هو بيان معاني الألفاظ فقط من دون الالتفات الى السياقات الواردة فيها بغية استنباط معانٍ جديدة يُعدل بها عن دلالتها اللغوية الى دلالةٍ جديدة ، وقد عُرف عن ابن عباس هذا النمط من الشروح لمفردات القرآن ، على النحو الذي يرد في الكتاب المنسوب إليه وهو (المقباس في تفسير ابن عباس) . واستناداً الى هذا يكون اعتماد الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ على السياق في بيان معنى (الصمد) سابقة معرفية وضعها للمسلمين إذا رغبوا في الوقوف على معانٍ قرآنية أخرى يتأولونها لأنّ القرآن ((حمالٌ ذو وجوه))[٤٢] .

إنّ معنى (الصمد) الذي يُستنبط من السياق يعني إنّ الله تعالى لم يلده أحد ولم يلد أحداً وليس له كفء ، وهذه تجسد معاني الوحدانية التي يبرزها قوله تعالى في أول السورة (قل هو الله أحد) ، اذاً معنى (الصمد) الذي يلده السياق

منخرطاً في إطار الوحدانية والتفرد وإنعدام الشبه و النظير .

وهذه الدلالة تقترب مما ورد في المعجم العربي من دلالة الصمد ، فقد جاء فيه ((الصمد :السيد المطاع الذي لا يُقضى دونه أمراً ، وهو الذي يُصمد إليه في الحوائج))[٤٣] . والأحد : الفرد متفرد بهذه الوحدانية ، فلا يقضى دونه أيّ أمر ، لأنّ ما يملكه من صفات ، لا يملكها غيره ، وصار مثالاً يؤول إليه العباد في حوائجهم .

إن هذا الاستقراء الدلالي لمضمون سياق سورة التوحيد ، قدّم لنا هذه الدلالات التي أخذت من قول الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ الذي كان من أهل بيت هم أرباب الكلام كما وصفهم الإمام علي ـ عليه السلام ـ بقوله ((نحن أرباب الكلام بنا تنشبت عروقه وعلينا تهدّلت فروعه ...)).

إنّ هذا المعنى لسورة التوحيد الذي بسطه الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ ، يُتمّمه ـ عليه السلام ـ ببيان دلالي آخر ، يرتبط بـ (الإشارة) التي مرّ ذكرها في بداية البحث ، والإشارة تعني الرموز الدلالية التي يمكن أن تستمد من خلف ظاهر النّص ، وهذا لا يعرفه إلّا الخواص والأولياء .

ومن هنا بسّط لنا ـ عليه السلام ـ بياناً إشارياً (للصمد) ، قال فيه ((لم يلد ، لم يخرج منه شيء كثيف كالولد وسائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين))[٤٤] ، فالولادة هنا لا تعني خروج (الولد) فقط ، وإنما تعني كل ما يخرج من المخلوق ، وهذا التأويل المجازي ، يجعل أمر الولادة ، مستحيلاً للذات المقدسة لا حقيقة ولا مجازاً ، وهذا الوجه الحقيقي للتوحيد ، وحتى لا ينصرف الذهن الى خروج أشياء أخرى غيرها ، ذكر كالأشياء اللطيفة بدلالة الولادة ، قال ـ عليه السلام ـ نافياً ذلك ((... ولا شيء لطيف كالنفس ولا يتشعّب منه البدوات كالسّنة والنوم والخطرة والهم والحزن والبهجة والضحك والبكاء والخوف والرجاء والرغبة والساحة والجوع والشبع ، تعالى أن يخرج منه شيء ((ويتولد منه شيء كثيف أو لطيف))[٤٥] .

فهذه الصفات التي أوردها الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ في قوله هذا ، صفات نفسية تخصّ بني آدم ، كما خصّت الصفات السابقة المخلوقات كلّها ، وهذه الصفات بنوعيها غالباً ما يوصف بها محدودٌ ، وسيؤول هذا المحدود يوماً الى زوال ـــ واستناداً الى هذا لا يمكن أنْ يوصف الله سبحانه وتعالى بأيّ منها ... بل إن المعاني الكمالية التي ((نصفُه تعالى بها أوصاف محدودة وجلّت ساحته سبحانه وتعالى عن الحّد والقيد))[٤٦] ، وما أورده الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ في أوصافه ، يجعل الإحاطة به جلّ شأنه أمراً مستحيلاً ، وهذا ما أشارت إليه الآية المباركة ((ولا يحيطون به علماً)) ، إذ لو أحاطت به أوصاف صار محدوداً ، وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ، وهذا عينه ما قاله الإمام علي ـ عليه السلام ـ في نهج البلاغة إذ ورد فيه ((... وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة انها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنّه غير الصفة))[٤٧] . وهذا وجه من وجوه دلالات (

الصمد) التي برّزها سياق سورة التوحيد الذي استند إليه الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ في بيان ذلك .

ويلتفت الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ مرة أخرى الى سياق السورة ، ويقف عند قوله تعالى (لم يلد) فيقول مفسراً ((... ولم يتولد منه شيء ولم يخرج منه شيء كما تَخْرج الأشياء الكثيفة من عناصرها كالشيء من الشيء والدابة من الدابة ، والنبات من الأرض والماء من الينابيع والثمار من الأشجار))[٤٨] .

فمن معاني (الصمد) اذاً ، الذي لم يولد من شيء ولم يلده أيَّ شيء ، وهذا الضرب من التفرد خاصٌ به ــ جلّ شأنه ــ ، ولم ولا يشاركه فيه شيء ، أيُّ شيء ، ومن أجل ترسيخ هذه الفكرة في النفوس ، مثّل لها الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ أولاً بخروج الأشياء الكثيفة من عناصرها ، إذ يستحيل ذلك على الله سبحانه وتعالى ، ولكي يتمّ الإمام ــ عليه السلام ــ كل أجزاء المعنى ، التفت مرة أخرى الى استحالة الولادة بشقيها على الله تعالى (لم يلد ولم يولد) ، فجاء بالأشياء اللطيفة ــ التي مرّ ذكرها ــ فقال ((... ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة في مراكزها ، كالبصر من العين والسمع من الأذن والشمّ من الأنف ، والذوق من اللسان والمعرفة والتمييز من القلب ، والنار من الحجر))[٤٩] .

إنّ هذه الإشارات المكثفة من الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ لماهية (الصمد) من دون الاقتصار على ما يؤديه الاستعمال الاجتماعي للفظة ، يعني الانتقال بها الى الاستعمال المجازي من أجل الاتساع والتوكيد على ما يقول ابن جنّي ((وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاث ، وهي الاتساع ، التوكيد ، التشبيه ، فإن عدم هذه الأوصاف كان الحقيقة البتة))[٥٠] .

والاتساع هنا يظهر في الإشارة الى خروج النبات من الأرض ، فهو ضربٌ من الولادة حقاً ، وعلى وفق هذا ، فالينابيع تلد الماء ، والعين تلد البصر ، أو يولد منها ، وكذلك السمع ... وهكذا ، وهذا الاتساع ضربٌ من ضروب المجاز المشار إليها . وهذا التوجيه الحسيني لهذه المعاني يجعل المجاز أساً من أسس المعرفة اللغوية عند أهل البيت ــ عليهم السلام ــ ، إذ يصبح بمقدورنا أن نتخيل هذه الوجوه من وجوه الحقيقة على الرغم من أنّها مجازية ، وإذا شئنا أن نعيد صياغة الفكرة ، نقول : إن الحقيقة والمجاز يتماسكان هنا ، ولا يمكن فصلهما لشدة التلازم بينهما فيما ذكره الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ من وجوه .

وهكذا لا تنطبق حقيقة الولادة ، ولا مجازها على الله عز وجلّ ، فيكون معنى (الصمد) بياناً آخر لوحدانية الله سبحانه وتعالى ، وهي وحدانية خاصة به .

إن إدراك الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ لما قد يقع فيه المسلمون من فهم مرتبك لقضية التوحيد ، وهي الأصل الأول في العقيدة الإسلامية ، جعلته ــ عليه السلام ــ ينحو هذا المعنى في بيان معنى (الصمد) في سورة التوحيد ، ولو اقتصر

في إجابته ــ عليه السلام ــ على ما يعنيه الجذر (ولد) في الاستعمال الاجتماعي لما كانت الدلالة كافية لما يريده ، ومن هنا شدّد ــ عليه السلام ــ على إيراد الأمثلة وشرحها ، بما يجعل المعاني قائمة أمام من يريد أن يتزود منها .

ولكي يقطع ــ عليه السلام ــ ، سُبُل الانحراف عمّا يريده بفعل ما كان يدور عصرئذٍ بين الاتجاهات الفكرية المتصارعة التي تريد كل منها أنْ توجّه الدين الى ما يحقق لها مصالحها ، وتبتعد به عن مساره الحق ، أتمَّ ما أراده من بيان معنى (الصمد) ، بقوله ((بل هو الله الصمد الذي لا من شيء ولا في شيء ولا على شيء ، مبدع الأشياء وخالقها ، ومنشيء الأشياء بقدرته ، يتلاشى ما خلق بمشيئه ، ويبقى ما خُلق للبقاء بعلمه ، فذلكم الله ، الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ولم يكن له كفواً أحد))[٥١] .

يكشف لنا هذا الجزء من تفسير الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ لدلالة (الصمد) عن إنّ الوحدانية الحقة تتجسد في هذه الصفة ، فبعد أن نظر ــ عليه السلام ــ الى دلالة سورة التوحيد مجملة من خلال السياق ، عاد هنا ــ عليه السلام ــ ، ليؤكد تلك الدلالات من جهة أخرى ، بإجمال مركّز ، يبلور الفكرة التي ترشحها لفظة (الصمد) ، فالله سبحانه وتعالى لا من شيء موجود ولا في شيء ولا علي شيء ، ولكن لا يخلو منه مكان ، وبهذا ، فهو ــ جل شأنه ــ كما وصف نفسه ((ليس كمثله شيء)) .

فهو المبدع الخالق ، يَفْنى كل شيء كتب عليه الفناء بعلمه ، ويبقى كل شيء كتب له البقاء بعلمه ومشيئته ، فكل شيء منقاد إليه ، وكل شيء محتاج إليه فصار وجوده واجباً .

فالله سبحانه وتعالى متعالٍ عن جميع الصفات التي منحها لمخلوقاته و ((لا يجوز تعطيل ذاته عن صفاته كما لا يجوز تشبيه ذاته بمخلوقاته))[٥٢] .

ولكي يستكمل الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ هذه التوسعة الدلالية لمعنى (الصمد) المستمدة من دلالة سورة التوحيد بأكملها ، عقّب بذكر صفة (علم الغيب والشهادة) مع صفتي (الكبير المتعال) ، وهذا الوصف هو قوله تعالى ((عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)) الرعد ٩ ، وعلم الغيب والشهادة يعني في بعض ما يعنيه ، علّمه ــ جلّ شأنه ــ بظاهر الأشياء وباطنها ، فلا يخفى عليه منها شيء ، فهو خالقها المحيط بها ، وهذا ما يُجسّد بعض معاني (الصمد) التي مرّ ذكرهما ، إذ أنه ــ جل شأنه ــ ((غير محدود بحدٍ ، وهو بكل شء محيط ، فلا يمتنع شيء عنه بجدّه ، فلا يكون غيباً بالنسبة إليه ، وإن فرض أن غيب بالنسبة الى غيره))[٥٣] .

أما صفتا (الكبير المتعال) اللتان ذكرهما الإمام ــ عليه السلام ــ من خلال ذكره للآية الكريمة ، فيتجلى فيهما معنيان من معاني (الصمد) ، وهما اسمان من أسمائه الحسنى ، فالكبرياء تناسبه ــ جلّ شأنه ــ لأنه تعالى ((يملك كل كمال لشيء ، ويحيط به ، فهو تعالى كبير أي له كمال كل ذي

كمال وزيادة))[٥٤] ، والمتعال : صفة من صفاته ـــ جلّ شأنه ـــ تجسّد علوّه ، وهو علوٌّ وصفه ـــ جلّ شأنه ـــ بقوله ((سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً))[٥٥] ، وهذا العلوّ يعني تسلّط على كل عالٍ ، وهكذا يظهر لنا الانسجام التام بين ما أورده الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ من صفات (الصمد) السابقة مع هاتين الصفتين ، إذ تتوحد هذه الصفات كلّها لتعطي الفهم الحسيني لمعنى (الصمد) .

ويروي الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ دلالات أخرى للفظة (الصمد) عن أبيه ـ عليه السلام ـ عن جدّه الحسين ـ عليه السلام ـ فيقول ((الصمد الذي لا جوف له ، والصمد الذي قد انتهى سؤده والصمد الذي لا يأكل ولا يشرب ، والصمد الذي لا يقام والصمد الدائم الذي لم يزل ولا يزال))[٥٦].

إن النظر المتأنّي في هذه المعاني لدلالة (الصمد) ، يستدعي العودة الى المعجم للوقوف على معاني الجذر (صمد) التي تناسب المقام ، وفي لسان العرب نجد المعاني الآتية[٥٧] :

١- الصمد : السيد المطاع الذي لا يُقضى دونه أمر .

٢- الصمد : الذي يصمد إليه في الحوائج أي يُقصد .

٣- الصمد : من صفاته تعالى وتقدس ، لأنه أصمدت إليه الأمور فلم يقضِ فيها غيره .

٤- الصمد : السيد الذي نهي إليه السؤدد .

٥- الصمد : الدائم الباقي بعد فناء خلقه .

إن النظر في دلالات الاستعمال الاجتماعي هذه ، يضع أمامنا معنى عاماً للصمد نجمله فيما يأتي فنقول : الصمد صفة من صفات الله تعالى ، فهو ـــ جلّ شأنه ـــ لا يقضى دونه أمرٌ في خلقه ، وهو الذي يقصد إليه في الحوائج ، وهو الباقي بعد فناء خلقه ... وهذه المعاني ، كما يظهر جلياً مقترضة في أغلبها من قول الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ ، إذ لم نعثر ـــ في حدود ما اطلاعنا ـــ على نصّ يُفسّر (الصمد) بهذه الدلالات إلّا في قول الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ .

***

وفي الختام ، نشير هنا الى انّ البحث خلص الى حقائق معرفية أُستنبطت من تفسير الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ تتمثل في أنّه ـ عليه السلام ـ ، قيّد الحديث الشريف ، من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ، بقوله (من قال في القرآن بغير علم) بعد أن رأى أن البعض وجّه المراد من الحديث وجهة تقف بالتفسير عند حدود ما يقوله بعض الصحابة ، ليتلاءم ذلك مع ما يريده . ثم أنه ـ عليه السلام ـ جعل لإدراك المعنى القرآني مراتب تتلاءم مع مرتبة الناظر فيه ، فضلاً عن وقوف ـــ البحث ـــ على تفسير بعض الآيات التي تفرد الإمام ـ عليه السلام ـــ بالإشارة الى ما جاء فيها من معانٍ لم يلتفت إليها من قبل . وبخاصة تفسيره لمعنى (الصمد) في سورة التوحيد ، إذ جعل السياق وسيلة لإظهار المعنى وهذا منهج معرفي أرسى قواعده ، ووضع

أصوله الإمام ــ عليه السلام ــ بعد أن أخذ علمه من أخيه وأبيه وجده ــ عليهم الصلاة والسلام ــ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

١- الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ،

٢- البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان (محمد بن يوسف الأندلسي ت ٧٤٥هـ) ، تحقيق صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٠هـ .

٣- تفسير البيضاوي ، البيضاوي ، دار الفكر ، بيروت – لبنان .

٤- تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) ، الثعالبي (عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف) ، مؤسسة الأعملي للمطبوعات .

٥- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) ، الطبري (محمد بن جرير ت ٣١٠هـ) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠هـ ـــ ٢٠٠٠م .

٦- تفسير العياشي ، المحدث محمد بن مسعود بن عياش السمرقندي ، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، المكتبة العلمية الإسلامية ، طهران ، إيران .

٧- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الشعب ، القاهرة ، مصر .

٨- تفسير كنز الدقائق ، الميرزا محمد المشهدي (ت ١١٢٥هـ) ، مؤسسة النشر لجماعة المدرسين ، قم ، إيران ، ١٤٠٧هـ .

٩- تفسير نور الثقلين ، الشيخ عبد علي الحويزي (ت ١١١٢هـ) ، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، ط٤ ، مؤسسة اسماعيليان ، قم .

١٠-تفسير الواحدي (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) ، الواحدي (علي بن أحمد الواحدي ت ٤٨٦هـ) ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، دار القلم والدار الشامية ، بيروت ، دمشق ، ١٤١٥هـ .

١١-التوحيد ، الشيخ الصدوق ، صححه السيد هاشم الحسيني الطهراني ، منشورات جماعة المدرسين ، قم ، إيران .

١٢-الخصائص ، ابن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٠م .

١٣-رسائل ومقالات ـــ بحث في مواضيع فلسفية وكلامية وفقهية ـــ ، جعفر السبحاني ، مؤسسة الإمام الصادق ــ عليه السلام ــ

١٤-سنن الترمذي ، الحافظ محمد بن عيسى الترمذي ، حققه وصححه عبد الوهاب عبد اللطيف ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ــ ١٤٠٣ هـ .

١٥-السنن الكبرى ، البيهقي (الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي ت ٤٥٨هـ) ، دار الفكر ، بيروت ـــ لبنان .

١٦-شرح أصول الكافي ، محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١هـ) ، تعليق الميرزا أبو الحسن الشعراني ، تصحيح علي أكبر الغفاري ، المكتبة الإسلامية ، طهران .

١٧-شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، ١٣٧٨هـ ـــ ١٩٥٩م .

١٨-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، دار الكتاب العربي ، ط٣ ، بيروت ، ١٤٠٧هـ .

١٩-لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت – لبنان .

٢٠-مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، أبو بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـــ لبنان ، ١٤٠٨هـ ـــ ١٩٨٨م .
٢١-مصباح المتجهد ، الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) ، مؤسسة فقه الشيعة ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٤١١هـ ـــــ ١٩٩١م .
٢٢-من لا يحضره الفقيه ، الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ) ، صححه علي أكبر الغفاري ، منشورات جماعة المدرسين ، قم ، ط٢ ، ١٤٠٤هـ .
٢٣-مواهب الرحمن في تفسير القرآن ، السيد عبد الأعلى السبزواري ، مطبعة الديواني ، بغداد .
٢٤-الميزان في تفسير القرآن ، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، مؤسسة النشر الإسلامي ، جماعة المدرسين ، قم ، ١٤٠٢هـ .
٢٥-وسائل الشيعة ، الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ ـــ) ، تحقيق مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث ، ط٢ ، ١٤١٤هـ ـــ ، قم ، إيران .

الهوامش:

(١) سنن الترمذي ٢٦٨/٤ ، تفسير الطبري ٥٤/١ ، تفسير القرطبي ٣٢/١ .
(٢) تفسير العياشي ١٧/١ ، التفسير الصافي ٣٥/١ ، وسائل الشيعة ٢٠٢/٢٧ .
(٣) التوحيد ٩١ ، وسائل الشيعة ١٨٩/٢٧ .
(٤) ينظر لسان العرب (خوض) .
(١) وسائل الشيعة ٢٠٤/٢٧ .
(٢) ينظر مواهب الرحمن ٥٥/٥ .
(٣) التوحيد ٩١ .
(١) ينظر الميزان ١٥٧/٥ .
(٢) لسان العرب (خوص) .
(١) لسان العرب (لطف) .
(٢) الميزان ٦٧/٣ .
(٣) مصباح المتهجد ٨١٧ .
(٤) تفسير الثعلبي ١٣٧/١ .
(١) لسان العرب (فيض) .
(٢) الكافي ٢٤٤/٨ .
(١) النحل / ٨٩ .
(٢) شرح أصول الكافي ٣٣٧/١٢ ، تفسير نور الثقلين ٥٤٧/٢ .
(٣) السنن الكبرى ٤٢٥/٢ ، الأحكام ٣٠٠/٣ .
(١) البحر المحيط ٣٠٢/٢ .
(٢) تفسير الواحدي ٣٠٤/١ .
(٣) الكشاف ٢٤٧/١ .
(٤) البحر المحيط ٣٠٢/٢ .
(١) التوحيد ٩١ .
(٢) ينظر لسان العرب (شبه) .
(٣) م ، ن (شيع) .
(٤) ينظر لسان العرب (شيع) .
(٥) لسان العرب (ولي) .
(١) ابراهيم ٣٦ .
(٢) تفسير البيضاوي ٢٠٠/٣ .
(٣) تفسير العياشي ٢٣٠/٢ .
(٤) م ، ن ٢٣١/٣ .
(٥) التوحيد ٩١ ، والآية الفرقان ٤٤ .
(١) الميزان ٢٢٤/١٥ .
(٢) لسان العرب (شهد) .
(٣) مجمع الزوائد ١٣٦/٧ .
(١) ينظر الاتقان ٢٧/١ .
(٢) لسان العرب (شهد) .
(٣) الميزان ٢٤٩/٢٠ .
(٤) من لا يحضره الفقيه ١٩١/١-١٩٢ .
(١) الميزان ٢٧٢/١٨ .
(٢) التوحيد ٩١ .
(٣) شرح نهج البلاغة ٧١/١٨ .

(١) لسان العرب (صمد) .
(٢) التوحيد ٩١ .
(٣) نفسه .
(٤) الميزان٦/٩٠ .
(١) نهج البلاغة ٢٧/١ .
(٢) التوحيد ٩١ .
(٣) نفسه .
(٤) الخصائص ٤٤٤/٢ .
(١) التوحيد ٩١ .
(٢) رسائل ومقالات ١٥ .
(١) الميزان ٢٠٧/١١ .
(٢) الميزان ٢٠٨/١١ .
(٣) الإسراء٤٣
(٤) التوحيد ٩٠ ، نور الثقلين ٧١١/٥ ، كنز الدقائق ٦١٠/١ .
(٥) ينظر لسان العرب (صمد) .